خطبة صلاة الجمعة 2024/12/12 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(خطبة الفتح)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 1-5].

جاء في كتب السيرة: لَمَّا دخل رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، وَرَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ، جَعَلَ يَتَوَاضَعُ لِلَّهِ، حَتَّى كَادَ عُثْنُونُهُ – طرف لحيته– أَنْ يُصِيبَ وَاسِطَةَ الرَّحْلِ، وهو يقرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: 1].

خطبة اليوم: **خطبة الفتح**

الحمد لله معزِّ المستضعفين بنصره، ومستدرجِ الظالمين بمكره، ومصرفِ الأمورِ بقَدَرِه، هو القاهرُ فوق عباده فلا يُمانَع، والظاهرُ على خلقه فلا يُنازَع، والآمرُ بما يشاء فلا يُراجَع، والحاكمُ بما يريد فلا يُدَافَع.

نحمده تعالى على إظفاره وإظهاره ونصره حمداً يليق بجلاله وكماله ونواله، ثم الشكر لهذه العصبةِ المؤمنةِ المجاهدة من الشباب والرجال الذين باعوا أنفسهم لله وحملوا أرواحهم على أكفهم وفارقوا الأهل والأولاد،

منافحين عن الحق مزهقين الباطلَ، فخصهم الله بهذه الفضيلة فلم يجاريهم فيها مجارٍ، ولم يباريهم في شرفها مبارٍ، فجزاكم الله عن شام الرسول خير الجزاء، وأعطاكم لما نويتم أكمل العطاء.

أيها الإخوة:

بعد فرحنا بفضل الله علينا وبما أولى الشام من فتح ونصر، علينا أن ندرك أن البلد تحتاج إلى أمور بها نحفظ هذا النصر ونحرسه، سأتحدث عنها تباعاً بإذن الله.

أولها: ستحتاج بلدنا لفترة كي تستقر الأمور وتأخذ مجراها الطبيعي، نرجو ألا تكون طويلة.

وبإمكاننا أن نساعد في تخطي هذه الفترة بيسر وسرعة إذا تحلينا بالصبر وعدم الاستعجال، وقام كل منا بعمله المعتاد، وتراحمنا وتعاونا.

وقد تحدثت عن هذه الفترة وعن طرق تخطيها في درس الاثنين الماضي.

ثانيها: تحتاج البلد إلى رصّ الصفوف وتآلف القلوب ووحدة الكلمة وراء الإدارة الجديدة، وهي مادة هذه الخطبة.

فلن يطمع الطامعون من الأعداء المتربصين أو من الظالمين الموتورين بمثل تفرق كلمتنا وتمزق صفوفنا، يثيرون النعرات، وينشرون الإشاعات، ويوغرون الصدور، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويضربون الناسَ بعضَهم ببعض.

فهذا موالٍ وهذا معادٍ، وهذا عميل وهذا مناصر، وهذا خائن وهذا أمين، وهذا عربي وهذا كردي، وهذا سني وهذا شيعي، وهذا علوي وهذا درزي، وهذا مسلم وهذا مسيحي.

لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أعطى راية الأنصار سيدنا سعدَ بن عبادة فمر سعد بأبي سفيان في كتيبة الأنصار، فقال سعد: اليومَ يومُ الملحمة، اليومَ تُستَحَلُّ الحُرُمَة، اليومَ أذلّ الله قريشاً، فلما حاذى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان شكا إليه ذاك، وقال: يا رسول الله! أمرتَ بقتْلِ قومِك، زعم سعد أَنَّهُ قاتلُنا، وقال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بْن عوف: يا رَسُول اللَّهِ، ما نأمن سعداً أن تكون منه صولةٌ في قريش، فقال رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "يا أبا سفيان، اليوم يَوْم المرحمة، اليوم أعز اللَّه قريشًا"، ثم أخذ رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم اللواء من سعد، وأعطاه ابنه قيساً، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه.

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عالماً بأثر تآلف القلوب ورصّ الصفوف وتطمين الناس في تقوية الفتح وإتمامه، وأثرِ تنافرها وزرع الضغائن وإثارة الخوف في إجهاض الفتح وإضعافه.

في سورة النصر التي تحفظون قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1] وقف العلماء عند معنى النصر ومعنى الفتح، فهل هما بمعنى واحد أو أن لكل منهما معنى يختلف عن الآخر.

قال الفخر الرازي في تفسيره: النصر: هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح: هو تحصيل ذلك المطلوب.

وقال غيره: النصر: غَلَبَةٌ بالقوة والبأس. والفتح: غلبة بالحجة وحسن الخُلُق.

ولقد دعانا ربنا في سورة النصر إلى منهج النصر والفتح معاً، وكأنه يقول لنا: إن تنتصروا فهذا أمر حسن، ولكن عليكم أن تقدموا منهاجاً مقنعاً بأقوالكم وأفعالكم، لتكونوا عندها من الفاتحين.

ومن أجل هذا – والله أعلم– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش بعد الفتح: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم»؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»!

وراح مع صحابته الكرام يُعَلِّمون الناسَ الإسلام ويدلونهم على أوامره ونواهيه بأقوالهم وأفعالهم فدخل يومها الناس في دين الله أفواجاً، وتماسك الصف وتوحدت الكلمة فكان فتحاً بعد النصر.

على أن المجرمين الآثمين المعتدين على الدماء والحرم لابد أن يحاسبوا ويعاقبوا يحاسبهم القانون لا الأفراد لكيلا تكون فتنة.

قال أهل السير: (استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العفو بضعة عشر رجلا أَمَرَ بقتلِهم وإن وُجِدُوا متعلقين بأستار الكعبة، لكثرة جرائمِهم، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح) (السيرة النبوية لأبي شهبة).

وقد جمع الحافظ ابن حجر في الفتح أسماءهم من متفرقات الأخبار.

ولقد رأينا أيها الإخوة والحمد لله من الإدارة الجديدة للبلاد ما يوافق تعاليم القرآن والسنة في توحيد الصف ورأب الصدع وجمع الكلمة، فتقرؤون على شاشة التلفاز السوري تعليماتِ هذه الإدارة:

– أكدنا التزامنا بالتسامح مع مَن لم تتلطخ أيديهم بدماء الشعب السوري.

– لن نتوانى عن محاسبة المجرمين المتورطين في تعذيب الشعب السوري.

– ندعو المواطنين إلى عدم الاعتداء على الأشخاص والممتلكات تحت طائلة المحاسبة.

– أي تصرف فردي لا يتوافق مع هذه التعليمات لا يمثلنا وسنواجهه بكل حزم وصرامة ويُعرض صاحبه للمحاسبة.

أيها الإخوة:

هذه الشـــام محروســـة بعين الله، مكلوءة بعنايته، محفوفة بلطفه، أخرج الإمام الترمذي عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**طوبى للشام**»، فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: «**لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها**».

وأخرج الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ احْتُمِلَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ بِهِ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ حِينَ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ**».

فطيبوا بذا نفساً واستبشروا به خيراً، وشمروا عن ساعد الجِد والعمل، وتعاونوا على البر والتقوى، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون.

أيها الإخوة:

يقضي الفرحُ بنصر الله والشكرُ له، ويقضي الحبُ للشام والفخرُ بها، ألا تنتشر في الشام الفوضى، وألا يشيع بها قتل ولا جرح ولا سرقة.

فالمؤسسات العامة ملك للجميع لا يجوز الاعتداء عليها بسرقة أو تحطيم. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 161] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ كَتَمَ غَالًّا فَإِنَّهُ مِثْلُهُ**» [أبو داود].

ومن أخذ من المال العام شيئاً فهو مدعو لإعادته تبرئة لذمته وتوبة لربه، وكذلك لا يحل الاعتداء على دماء الناس وأرواحهم وأموالهم، خاصة وقد سمعنا بإصابات إخوة مواطنين بالعيارات النارية في المشافي، سلّم الله الجميع.

فالسكينةَ السكينة أيها الناس! والأناةَ الأناة أيها الشباب! والرعايةَ الرعاية أيها الكبار للنشيء الحبيب!

والحمد لله رب العالمين